ثقـــافة المرأة

للآنسة اسماء فهمى

درجة شرف فى الاداب

اتجه خاطرى نحو هذا الموضوع بعد قراءة تعليق « الرسالة » على خطاب الآنسة حياة التى تشكو من أن صاحب « الرسالة » قد حرم المرأة أن يكون لثقافتها مظهر فى مجاله بجانب ثقافة الرجل ، ورد صاحب الرسالة بأنه لم يرد أن يسمح للرجال بالتحدث عن شؤون النساء الخاصة . وليست افهم تماماً المقصود بشؤون النساء ، أهى امور الدار وتربية الأطفال ، أم المراد مساهمة المرأة فى ميدان التحرير وطبع الأدب بطابعها الأنيق الخاص ، بصرف النظر عن الموضوعات النسوية البحتة ؟

وسواء أكان المقصود الأمر الاول ام الثانى ام الاثنين معاً فان موضوع ثقافة المرأة العامة ، هو ما ينبغي ان يبدأ ببحثه حتى نتبين ما اذا كانت ثقافة المرأة تنحصر فى دائرة خاصة ، وهل يحسن ان يكون لها تعليم وتهذيب يختلفان عن تعليم الرجل وتهذيبه .

وقد لا يكون من غير الملائم لفت الانظار الى هذا الموضوع فى الوقت الذى تطور فيه تعليم الفتاة فى العشر سنين الاخيرة تطوراً عظيماً ، فبعد ان كان تعليمها قاصراً على بعض الفنون المنزلية ومبادىء القراءة والكتابة وقشور اللغات الأجنبية ، اصبحت تتاقى من العلوم مايتلقى الفتى فى المدارس الابتدائية والثانوية ، كما اصبحت تدرس معه جنباً الى جنب فى الجامعات .

وبالرغم من ان مصر لم تبتدع ذلك النظام ، وانما نسجت فيه على منوال الأمم الراقية التى تأخذ عنها جل نظم الحضارة والعمران ، فان ذلك الانتقال لم يتقبله الكثيرون قبولا حسناً بعد ، لأنهم يرون فيه ضياعاً لوقت الفتاة التي خلقت لأن تكون أماً ، زاعمين ان سيكولوجية المرأة او تركيبها النفسى ، ووظيفتها فى الحياة تستدعيان اعداداً خاصاً وتعليما غير تعليم الرجل .

ويظهر ان انصار هذا المبدأ لهم تفسير خاص ، لأغراض التعليم ومعنى الثقافة ! أما مايفهم عادة من الثقافة فهو كل ما من شأنه تهذيب النفس وصقل العقل وتقويم العاطفة وتوسيع المدارك . وعلى ذلك يدخل تحت الثقافة العلوم بأنواعها والفنون والآداب والاخلاق ، وكل مايكتسب المرء من تجارب وتعليم عملي فى الحياة . ولما كان هذا النوع من الغذاء العقلى والروحى لا يستغنى عنه الانسان الذى يصبو الى الكمال ، وكانت المرأة انساناً لا تختلف عن الرجل من هذه الناحية ، فلابد لها من غذاء عقلى ومعنوى ايضاً ، ولما كان التكافؤ العقلى بين الجنسين اصبح من الامور المسلم بها ، وجب اذن ان يتغذى عقل المرأة كما يتغذى عقل الرجل حتى تصل الى حظ مثل حظه من الثقافة . نعم لا مفر الآن من تثقيف المرأة بالطريقة التي تتبع فى تثقيف الرجل ، اذ أصبح من الجلى الآن ان الطريقة القديمة لتعليم الفتاة لم تنتج غير مخلوق ناقص من نواح كثيرة ، بدليل هجران الرجل لمنزله فى كثير من الاوقات ، لأن شريكة حياته تعجز عن أن تمده بالصحبة والمعونة ، كما تعجز عن جعل دارها مهبطاً للجمال والتسلية . أقول هذا القول وأشعر اننى لو قلته في بلد آخر متمدين غير مصر ، لنظر الناس الى بمنتهى الدهشة ، نظرتهم الى من يخبرهم مثلا ان النهار فى الصيف اطول منه فى الشتاء ، ظاناً انه يذكر لهم امراً طريفاً ! . . ولكن مصر التى سارت بخطى واسعة جداً فى نواح كثيرة من نواحي التقدم والرقى مازالت تتردد في قبول بعض المبادىء التى تعد أساس الرقى الصحيح وعنوان الحضارة ، أعنى مساواة المرأة بالرجل في الحقوق وخصوصاً الثقافة .

وليس الغرض الرئيسى من تعليم الفتاة كما يظن الكثيرون تأهيلها لمزاولة مهنة من المهن كالمحاماة أو الطب أو الهندسة ، وانما الأهم أن تصل إلى حقها الطبيعى من اعتيادها التفكير المنظم

الشيخ : ياسيدتي . مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجوارى ، فلم لا تأمرين إحدى الجوارى ان تقف مراعية للغلام حتى اذا مر اعلمتك فتخرجين اليه . ؟ .

الجارية : لا تغلط ياشيخ . ! .

الشيخ : (يفهم مرادها ويطرق خجلا من هفوته) ! انتهى المنظر . وكان فى مقدورى ان اجعل منه فصلا كبيراً . لكنى آثرت أن أبقيه على أصله . لأن المسألة عندى هل نظهر العناصر مع بقائها على شكلها . أو نتصرف بها ونستعملها كما نشاء ؟ سنتكلم فى هذا اذا القينا فى الاسبوع القادم

وإكسابها خلق الاعتماد على النفس والاعتداد بالكرامة، وذلك لا ينشأ إلا عند تبين مبلغ المقدرة الشخصية والاستعداد. ولا ضير إذا هي لم تستخدم تلك المعلومات بالذات في حياتها المنزلية إذ الغرض الاساسي من التعليم كما يقول افلاطون في «الجمهورية»: توجيه الروح إلى النور باعتياد التفكير المنتج وبالابتعاد زمنا ما عن قيود الماديات. والواقع اننا نحط من شأن التعليم كثيرا إذا نظرنا اليه قبل كل شيء كوسيلة لتحقيق غرض مادي فالتعليم يجب أن يعتبر غرضا في ذاته قبل أن ينظر اليه بتلك النظرة المادية سواء في حالة تعليم المرأة أو تعليم الرجل. سأل مرة استاذ في إحدى الجامعات الكبرى تلميذه لماذا يتعلم تعليما جامعياً ولم اختار التاريخ لفرع تخصصه. فكان جواب الطالب الصريح مما أهاج الاستاذ الذي لم ير مغضبا من قبل. وذلك انه أجاب انما يتعلم ليحصل على درجة عالية تمكنه من الحصول على وظيفة تضمن له رغد العيش ... ثار الاستاذ وغضب لانه شعر أن تلميذه لا يتعلم لوجه العلم، وعلى ذلك فهو يفقد أهم شروط التهذيب الصحيح. فبغير هذا الشرط لا يمكن أن يمتزج العلم بالنفس أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تحدث الثقافة.

وعلى ذلك تكون المرأة امتن ثقافة وأعمق تهذيبا لو تعلمت تعليم الرجل لانها في الغالب تتعلم للعلم فيكون لانتاجها مظهر جذاب لأنه بعيد عن المؤثرات المادية التي كثيرا ما تعترض تقدم الرجل.

إلا أن ثقافة المرأة لا تكمل ولا يصح لها أثر محسوس إذا علمناها علوم الرجل بينما تحرم مما يستمتع به من حرية وارادة مستقلة، وتحاط بسياج من القاليد العتيقة والرقابة الخانقة، فهي في هذه الحال تقول بمرارة: من لي بعيش الأغبياء.... كما أنه لا يمكن أن يصدر عنها ثقافة عالية، إذ ينقصها بسبب قيودها الشخصية والابتكار والصراحة والنظرة العملية .. وهكذا تبدو ثقافتها مبتورة وان تناهت في الظرف وتألق فيها الذكاء الباهر.

وهنا قد يسأل سائل: وما مبلغ أثر التعليم المنزلي في ثقافة المرأة؟ اني وإن كنت أريد تعليم المرأة تعليما عالياً ابتغاء وجه العلم، او استعدادا للعمل فلست ممن ينكرون ما للتعليم المنزلي من أهمية في ثقافة المرأة. وهو لا ينفعها عمليا فحسب، وانما لهذا التعليم أثر جميل في انتاجها العقلي او مظهر ثقافتها. وقد كان يقال عن (جين اوستن) الكاتبة الانجليزية التي اشتهرت ببراعة الأسلوب وسمو الخيال ودقة التحليل انها انما اكتسبت الطلاوة في التعبير، والدقة في التفاصيل، من تدريبها الطويل على استعمال الابرة والمنسج. والواقع أن مثل هذا التعليم يكسب المرأة المقدرة على مراعاة النسب ودقة الاسلوب ودقة الحساسية، وكل ذلك يبدو واضحا الا أن ما يعترض عليه بشدة هو تضحية التعليم العام من اجل هذا التعليم المنزلي، بحجة عدم استخدامه عمليا في وظيفتها الخاصة. انه لمنتهى الظلم الا ننظر إلى المرأة كانسان له حق كامل في الحرية والتعليم قبل أن ننظر اليها كائم أو دمية منزل، بل ان منتهى الاستهتار بمواهب المرأة ان نكتفي منها بالقشور دون اللباب، فلا نحاسبها على عدم تعمقها في التعليم وإنما ننظر اليها نظرة كنظرة اهل العصور الوسطى، الذين كانوا لا يطلبون من المرأة اكثر من اتصافها بالعفة والصيانة. أما الصفات الأخرى كالذكاء وبعد النظر والشجاعة والصراحة فلم يكن عليها اقبال يذكر؛ وإنما الاستكانة والخشوع كانا من أهم مميزات الكمال النسوي في تلك العصور. ولقد كانت «جرزلدا الصبور» التي تحملت مرارة هجر الزوج وقسوته مثل الفضيلة والأمومة الصالحة عندهم ... واخشى أن تكون (جرزلدا) هذه لا تزال المثل الأعلى للزوجة عند الكثير من الرجال ...

إن التطورات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي تبعد الشقة كل يوم بين العصور الوسطى والعصر الحديث، تفرض علينا تغيير الآراء القديمة بالنسبة الى مركز المرأة وثقافتها. ففي حياتنا الحديثة المتشعبة المسالك الكثيرة المطالب، المملوءة بالصراع والتنافس لم يبق مكان للمرأة الساذجة الضعيفة. وعلى ذلك كان من الخطأ الكبير أن نتعمد انقاص تثقيف المرأة عن تثقيف الرجل، بل يجب أن يتناسب مقدار الثقافة مع وظيفة تلك التي تهز العالم بيسارها اذا ما هزت المهد بيمينها؟..

ولكن ماذا تكون النتيجة لو تعلمت المرأة كما يتعلم الرجل؟ هل تفقد مميزاتها الخاصة ولا يصبح هناك فرق بين ثقافتها وثقافته؟ الواقع أن الثقافتين لا تختلفان الا شكلا فقط، فيكون لثقافة المرأة وان اتحدت في الجوهر مع ثقافة الرجل طابعها الخاص، إذ تتجلى فيها ما تمتاز به المرأة من حنان ورقة وتأثر بالعواطف والهام وحدة ذكاء وشدة حساسية.

وإنا لنأمل أن نرى أثراً واضحاً لتلك الثقافة النسوية «في الرسالة» التي تعتبر بحق رسالة الروح الحديثة المملوءة قوة وابتكاراً وتجديداً

اسماء فهمي